التواصل غير اللفظي

في التراث العربي الإسلامي: ملاحظات أولية

حسن الهلالي

- تمهيــــــــد

تهدف هذه المقالة إلى تقديم بعض الملاحظات حول التواصل غير اللفظي في الثقافة العربية الإسلامية. وتركز بالأساس على أحد أعلام البيان العربي. ويتعلق الأمر بالجاحظ (أبو عثمان عمرو بن بحر المتوفى سنة 255 هجرية)، الذي أسهم بشكل كبير في تأسيس البيان العربي. فقدم آراء مثيرة، وعرض إشارات لطيفة، تدور حول الوسائط التي يلجأ إليها الإنسان للتعبير عن أغراضه والإبانة عن نفسه. لقد انخرط الجاحظ بكل قواه في الصراع الدائر، في زمانه، حول مكامن الإعجاز في الخطاب المبين: أفي اللفظ أم في المعنى ؟ فدافع عن التصور الذي يعزي الفضل والمزية في الكلام البليغ إلى اللفظ والصياغة وليس إلى المعنى. وهو ما جعله ينكب على إبراز كل المكونات، لفظية كانت أو غير لفظية، التي تتدخل في تحقيق التواصل التام. فما هو التصور العام الذي أطر آراء الجاحظ في هذا المجال؟ ثم ما المقصود بالتواصل غير اللفظي عنده؟ وما هي قنواته؟

1- تصور الجاحظ للتواصل.

لقد كان تصور الجاحظ – المعتزلي المذهب - للتواصل محكوما بالشروط العامة التي كانت تحرك الثقافة العربية الإسلامية وتؤطرها. وتتمثل هذه الشروط من جهة في وضع شروط تفسير الخطاب المبين، ومن جهة أخرى في وضع قوانين إنتاج الخطاب البليغ للدفاع عن العقيدة الإسلامية وكسب الأنصار وإفحام الخصوم، سواء كانوا مسلمين من أصحاب المذاهب الأخرى أم كانوا يعتقدون مللا أخرى، كالمنوية والصابئة. وإذا كان الشافعي قد كرس حياته لإنتاج قوانين تفسير الخطاب المبين، فإن الجاحظ عمل من جهته كل ما في وسعه لتأسيس شروط إنتاج الخطاب البليغ. مما جعله يستحضر في آرائه ونقاشاته كل ما يتعلق بالعملية التواصلية من متكلم ومستمع وسياق ومقام ورسالة. إن ما كان يشغل بال الجاحظ بالأساس – يقول الجابري - " هو شروط إنتاج الخطاب وليس قوانين تفسيره. ومن هنا نجده يدخل "السامع" كعنصر محدد وأساسي في العملية البيانية، بل بوصفه الهدف منها، الشيء الذي كان غائبا عن اهتمام الشافعي الذي كان يهمه بالدرجة الأولى قصد "المتكلم"، في القرآن

والسنة. "(1) إن آراء الجاحظ كانت محكومة بعقيدته الكلامية المذهبية، وهو ما دفعه إلى اعتبار، في تنظيره للبيان العربي، كل ما يحقق الإقناع.

لقد كان لهذه المرجعية المذهبية تأثير في تصور الجاحظ للدليل وأنواعه. فكان ينظر إلى الكون بما فيه بوصفه دليلا (حكمة)؛ والدليل عنده قسمان:

- دليل لا يستدل: ويندرج تحت هذا القسم جميع أنواع العلامات التي يضعها الإنسان، بل والجماد والحيوان سوى الإنسان. وبيان هذا الضرب "تمكينه المستدل من نفسه، واقتياده كل من فكر فيه إلى معرفة ما استخزن من البرهان، وحُشي من الدلالة، وأودع من عجيب الحكمة"(2).

- دليل يستدل، وهذا القسم مقصور على الإنسان؛ يقول الجاحظ: "ووجدنا كون العالم بما فيه حكمة، ووجدنا الحكمة على ضربين: شيء جعل حكمة وهو لا يعقل الحكمة ولا عاقبة الحكمة، وشيء جعل حكمة وهو يعقل الحكمة وعاقبة الحكمة، فاستوى بذاك الشيء العاقل وغير العاقل في جهة الدلالة على أنه حكمة؛ واختلفا من جهة أن أحدهما دليل لا يستدل، والآخر دليل يستدل، فكل مستدل دليل وليس كل دليل مستدلا، فشارك كل حيوان سوى الإنسان، جميع الجماد في الدلالة، وفي عدم الاستدلال، واجتمع للإنسان أن كان دليلا مستدلا"(3). وانطلاقا من هذا التصور قدم الجاحظ، حسب علمنا، أول تصنيف واضح للدوال في التراث العربي الإسلامي.

2- تعريف التواصل غير اللفظي.

بالرغم من أن أول اتصال للإنسان بالعالم الطبيعي كان غير لفظي وبالرغم مما للعوامل غير اللفظية من دور في التواصل وتدخلها فيه بنسبة تفوق 58%، فإن الاهتمام بهذه الأخيرة بوصفها موضوعا للدراسة حديث النشأة؛ إذ تعود أول دراسة نسقية وموسعة للوقائع الإشارة والحركية إلى بداية الخمسينات من القرن العشرين(4) . وانكب، بعد ذلك بعقدين، المتخصصون في التواصل، وخاصة الأمريكيون، بشكل جدي على دراسة وتحليل شفرات غير اللفظي. وتم التوصل إلى خلاصة يتفق حولها المتخصصون، مفادها أن الجزء الذي يعود إلى غير اللفظي مركزي وأساسي في علاقتنا مع الآخر.(5) فما المقصود بالتواصل غير اللفظي؟

يطرح تعريف التواصل غير اللفظي مشاكل متعددة، تنجم عن صعوبة الفصل بين ما هو لفظي وما هو غير لفظي في مخاطباتنا ومحادثاتنا لانصهارهما وتداخلهما. وهو ما يجعل الحسم في رد بعض العوامل، كالسكتات التي نلجأ إليها أثناء الكلام لأخذ نفسنا، والتنغيم والنبر، وتنوعات الصوت،

والكتابة إلى اللفظي أم إلى غير اللفظي أمرا صعبا. لذلك تجنب بعض الدارسين تقديم تعريف للتواصل غير اللفظي، واكتفى بتعداد القنوات التي تندرج ضمن التواصل غير اللفظي. بينما سعى البعض كجون كلود مارتن إلى تقديم تعريف له. لقد لاحظ مارتن أن عبارة "غير اللفظي" توحي بالإشارات والحركات فقط، لذلك استعمل بدلها عبارة "التواصل الصامت". وهي عبارة تغطي، بالإضافة إلى الحركات والإشارات، المجالات التي نوجد فيها، وأسنة معرفة العشيرة التي ننتمي إليها، والمسافة التي تفصل بعضنا عن بعض، ومركزنا الاجتماعي، ومبتكرات الإنسان من عطور وملابس وموضة، وسلوك الإنسان المقصود وغير المقصود الخ. ثم عرف التواصل غير اللفظي بقوله: " كل عامل يدخل في الظاهرة التواصلية ولا يهم بشكل مباشر الشفوي والكتابي ".(6) إن التواصل غير اللفظي "لغة صامتة" سننها ضمني، في مقابل اللغة ذات الخاصية الصوتية وقابلية التمفصل والسنن الصريح.

أما الجاحظ فقد حاول تقديم تعريف عام للبيان يشمل كل ما يمكن أن يحقق الفهم والإفهام، أي التواصل الناجح. وهذا ما جعلنا نعتقد أن البيان عنده قد يكون مرادفا لما يقصده المعاصرون بالتواصل بالمعنى الواسع.

يرى الجاحظ أن المعاني والمقاصد والرغبات والمشاعر والإحساسات لا تتضح وتقرب من الفهم وتنجلي للعقل إلا بذكرها، والإخبار عنها، واستعمالها، والدلالة عليها والبيان عنها. والبيان عنده "اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى، وهتك الحجاب دون الضمير، حتى يفضي السامع إلى حقيقته، ويهجُم على محصوله كائنا ما كان ذلك البيان، ومن أي جنس كان الدليل لأن مدار الأمر والغاية التي إليها يجري القائل والسامع، إنما هو الفهم والإفهام، فبأي شيء بلغت الإفهام وأوضحت عن المعنى فذلك هو البيان في ذلك الموضع"(7). يلاحظ المتأمل لهذا النص أن مفهوم البيان عند الجاحظ مفهوم واسع يشمل كل الدلائل، اللفظية وغير اللفظية، التي تحقق التواصل بين المتكلم والمستمع في مقام معين، وتعبر عن حقائق حاجات الناس، وتضمن استمرار اجتماعهم.

بعد هذا التحديد انتقل الجاحظ إلى تعداد أصناف الدلالات التي بها يتم التواصل والبيان، وهي لا تعدو خمسة أصناف: اللفظ، والإشارة، والعقد، والخط ثم النصبة. وهذه الأصناف وإن كان لكل واحد منها ميزة خاصة وفضل لا يكون للأُخَر، فإنها تتكامل وتتعاون فيما بينها، ويؤدي الواحد منها ما قد يقصر الباقي عن أدائه من المعاني والأغراض؛ بل إنها ترمي جميعا إلى تحقيق تواصل أتم وإبلاغ أكمل. وتتوزع حسب حالات مستعمليها وأوضاعهم وحسب الحواس الخمس. فاللفظ للسامع، والإشارة للناظر، والعقد يشترك فيه الجميع، والخط للغائب، وليس للذائق والشام نصيبا(8). ثم إن هذه

الأصناف من الدلالات مستعملة عند جميع الأقوام وفي جميع الأزمان، وإن كان التفاوت ملحوظا في مدى توظيفها بين الأمم. وفي النهاية هي التي تكشف: "عن أعيان المعاني في الجملة، ثم عن حقائقها في التفسير، وعن أجناسها وأقدارها، وعن خاصها وعامها، وعن طبقاتها في السار والضار، وعما يكون منها لغواً بهرجا، وساقطا مطرحا"(9).

لقد كان علماؤنا على وعي تام بأهمية هذا التوزيع التكاملي لأصناف الدلائل في العملية التواصلية. وإذا كان اختيار المتكلم لصنف محدد من هذه الدلائل أكفى في تحقيق الإفهام من غيره، فإنه قد يلجأ أحيانا إلى بعض الأصناف لأداء ما سيسميه ياكبسون بالوظيفة التنبيهية لا غير. فالمتكلم قد " يدخل في الكلام ما لا حاجة بالمستمع إليه ليصحح به نظما [أو وزنا] إن كان في شعر، أو ليتذكر به ما بعده إن كان في كلام منثور، كنحو ما تسمعه في كثير من كلام العامة قولهم: ألست تسمع؟ أفهمت؟ أين أنت؟ وما أشبه هذا، وربما تشاغل العيي بفتل إصبعه ومس لحيته، وغير ذلك من بدنه، وربما تنحنح"(10).

3- قنوات التواصل غير اللفظي

يقتضي تحقيق التواصل الناجع تنويع الدلائل التي يتوسل بها المتكلم في العملية الإبلاغية وفق ما يقتضيه المقام. وبعد أن بين الجاحظ أن هذه الدلائل تتكامل فيما بينها، شرع في تفصيل القول في كل منها.

3-1- الإشارة

بعد أن عرض الجاحظ الأطراف التي تتم بها الإشارة من يد، ورأس، وعين، وحاجب الخ، وما تؤديه من ردع، وزجر، ومنع، ووعد، ووعيد، وتحذير... يرى أنها تكمل الدلالة بالألفاظ، يقول: "والإشارة واللفظ شريكان، ونعم العون هي له، ونعم الترجمان هي عنه، وما أكثر ما تنوب عن اللفظ، وما تغني عن الخط" (11)، بل تؤدي الإشارة، أحيانا وفي مقامات معينة، ما لا تؤديه الألفاظ من الأغراض، وتعبر عما لا تستطيع الألفاظ التعبير عنه؛ إذ "لولا الإشارة لم يتفاهم الناس معنى خاص الخاص، ولجهلوا هذا الباب البتة"، وخاص الخاص أو الخاصيات، هو ما لم يوضع له اسم. ويورد الجاحظ أبياتا لبعض الشعراء تبين فيما تتقدم فيه الإشارة الصوت؛ منها:

أشارت بطرف العين خيفة أهلها إشـارة مـذعـور ولـم تـتكلم

فأيقنت أن الطرف قد قال مرحبا وأهـلا وسـهلا بالحبيب المتيـم

وقال الآخر:

العين تبدي الذي في نفس صاحبها من المحبة أو بغض إذا كانـا

والعين تنطق والأفواه صامتـة حتى ترى من ضمير القلب تبيانـا

وقال الآخر:

ترى عينها عيني فتعرف وحيها وتعرف عيني ما به الوحي يرجع(12)

ومع أن الدلالة بالإشارة تتقدم أحيانا الدلالة باللفظ، فإنها تظل تابعة للفظ ما دام "حسن الإشارة باليد والرأس، من تمام حسن البيان باللسان؛ مع الذي يكون مع الإشارة من الدل والشكل والتقتل والتثني، واستدعاء الشهوة، وغير ذلك من الأمور"(13).

لقد كان الجاحظ يرى في الإشارات والحركات والإيماءات دعامة أساسية للتواصل اللفظي، وأنها تلعب دورا أساسيا في الإبلاغ والإقناع؛ لذلك فإن إتقان استعمالها أمر مطلوب في السجالات والمناظرات(14). وعلى هذا الأساس اعتبر عدم التمفصل بين اللفظي وغير اللفظي عيبا. وفي هذا الصدد يورد قصة أبي شمر – وهو أحد أئمة القدرية المرجئة - الذي لم يكن يستعمل الدلائل عبر اللغوية حتى أقنعه النظام؛ يورد الجاحظ: " وكان أبو شمر إذا نزع لم يحرك يديه ولا منكبيه، ولم يقلب عينيه، ولم يحرك رأسه، حتى كأن كلامه إنما يخرج من صدع صخرة. وكان يقضي على صاحب الإشارة بالافتقار إلى ذلك، وبالعجز عن بلوغ إرادته. وكان يقول ليس من حق المنطق أن تستعين عليه بغيره، حتى كلمه إبراهيم بن سيار النظام عند أيوب بن جعفر، فاضطره بالحجة، وبالزيادة في المسألة، حتى حرك يديه وحل حُبوتَه، وحبا إليه حتى أخذ بيده. وفي ذلك اليوم انتقل أيوب من قول أبي شمر إلى قول إبراهيم"(15).

ويذكر الجاحظ في مقام ذكر الخطب وتحبير الكلام واقتضابه، وصعوبة ذلك المقام وأهواله أن " النظر في عيون الناس عي، ومس اللحية هلك، والخروج مما بني عليه أول الكلام إسهاب":(16).

ويعتبر صاحب طوق الحمامة في الألفة والإلاف ابن حزم الأندلسي ممن تعرضوا، بنوع من التفصيل في التراث العربي الإسلامي، لتفكيك سنن الإشارات اعتمادا على منهج تجريبي يستند إلى الملاحظة والمعاينة. يرى ابن حزم أن "أول ما يستعمل طلاب الوصل وأهل المحبة في كشف ما يجدونه إلى أحبتهم التعريض بالقول". وجواب هذا المثير قد يكون باللفظ أو بهيئة الوجه والحركات. ثم يعقد

بابا للإشارة بالعين يعرض فيه مختلف الأغراض والمعاني، من قبول ورفض، ووعد ووعيد وتهديد، وأمر ونهي، وتنبيه وسؤال وجواب، ومنع وعطاء، وتعبير عن فرح أو حزن، التي يتم التعبير عنها بالإشارة بلحظ العين؛ فلكل معنى من هذه المعاني ضرب من هيئة اللحظ. ولا يوقف على تحديد هذه الهيئات إلا بالملاحظة والمشاهدة في مقام تواصلي حي. "فالإشارة بمؤخر العين الواحدة نهي عن الأمر، وتفتيرها إعلام بالقبول، وإدامة نظرها دليل على التوجع والأسف، وكسر نظرها آية الفرح، والإشارة إلى إطباقها دليل على التهديد، وقلب الحدقة إلى جهة ما ثم صرفها بسرعة تنبيه على مشار إليه، والإشارة الخفية بمؤخر العينين كلتاهما سؤال، وقلب الحدقة من وسط العين إلى الموق بسرعة شاهد المنع، وترعيد الحَدَقَتَين من وسط العينين نهي عام"(17) . يتبين مما ورد عند الجاحظ أولا، ثم عند ابن حزم فيما بعد مدى وعي العرب بما للوجه باعتباره أبرز طرف من أطراف الجسم عامة وللعين خاصة من دور في التواصل والتعبير الصادق عن أحاسيس ومشاعر المتواصلين و إيصال ما تعجز اللغة عن التعبير عنه.

3-2- الخط.

أما عن دلالة الخط، فيذكر القدماء أولا أن أشكال الكتابة تم اختراعها بعد أن استنفذ الحفظ دوره، ولم يعد قادرا على الإلمام بكل ما توصل إليه الإنسان من علوم وخطب وأشعار... وبذلك يكون من بين أدوارها تدوين ما عسر على القوم حفظه، "وما لا يؤمن بأن ينسى على طول الزمان وما يلتمسون إبقاءها على من بعدهم وما يلتمسون تعليمها وتفهيمها من هو ناء عنهم في بلد أو مسكن آخر"(18). زيادة على ما تقوم به الكتابة من حفظ للموروث ولما توصل إليه الإنسان من معارف، فإنها تسهم في تهذيب اللغة وتحسين الأسلوب. فالكاتب يكون له متسع من الوقت فيتمكن من إعمال الفكر وانتقاء الكلمات.

هذا، والكتابة تفضل الألفاظ في أنها توجه للغائب والحاضر، وفي أنها تبقى على مر الأيام بخلاف الألفاظ التي لا تتجاوز لحظة النطق بها. يورد أبو حيان التوحيدي: " وقال ابن التوأم: خط القلم يقرأ بكل مكان وفي كل زمان، ويترجم بكل لسان، ولفظ اللسان لا يجاوز الآذان، ولا يعم الناس بالبيان، ولولا الكتاب لاختلفت أخبار الماضين، وانقطعت أنباء الغابرين، وإنما اللسان للشاهد لك، والقلم للغائب عنك، وللماضي والغابر بعدك، فصار نفعه أعم، والدواوين إليه أفقر، والملك المقيم بواسطة بلاده لا يدرك مصالح أطرافه، وسد ثغوره وتقويم مملكته إلا بالكتاب، ولولا الكتاب لما استقر التدبير، ولا استقامت الأمور"(19).

3-3- العقد.

ولدلالة العقد وهو الحساب، معان متعددة ومنافع كثيرة، إذا انضافت إلى الدلالات الأُخر اكتمل النظام والمصلحة وعمت الفائدة.

3-4- النصبة.

أما النصبة، وهي حالات الأشياء وهيأها الطبيعية فيها، وإن نقصت عن بلوغ الأصناف الأربعة السالفة الذكر في طريق دلالتها، فإنها ناطقة بغير اللفظ لمن استنطقها، ومشيرة بغير يد أو طرف. "فالأجسام الخرس الصامتة. - كما يقول الجاحظ - ناطقة من جهة الدلالة، ومعربة من جهة صحة الشهادة، على أن الذي فيها من التدبير والحكمة، مخبر لمن استخبرهُ، وناطق لمن استنطقه، كما خبّر الهزال وكسوف اللون عن سوء الحال، وكما ينطق السمن وحسن النضرة عن حسن الحال"(20). وبالجملة، "متى دل الشيء على معنى فقد أخبر عنه وإن كان صامتا، وأشار إليه وإن كان ساكنا"(21).

2- الجابري محمد عابد، نقد العقل العربي 2 بنية العقل العربي، المركز الثقافي العربي، الطبعة الأولى، 1986، ص20.

3-- الجاحظ، الحيوان، ج 1، ص 34. 4-نفسه، ج 1، ص 33.

5-يعتبر كتاب Roy Birdwhistelle, Introduction to kinesics, 1952 أول دراسة نسقية موسعة للوقائع الاشـــارية. ولقد طبق في هذه الدراسة مناهج اللسانيات البنيوية ومفاهيمها على نسق الإشارات.

6- انظر: Jean-Claude Martin, Le guide de la communication, Marabout, 1999, p49، حيث يذكر أن اكمان Ekman فكك خمسين ابتسامة مختلفة، ودرس شيفلن Scheflen الهيئات وترددالها، واهتم غوفمان Goffman بطقوس وعادات الحياة في المجتمع، وانشغل اكسلين Exline بالسلوكات المختلفة لنفس الشخص، فيما انكب ديتمان Dittman على دراسة حركات الرجلين واليدين، الخ. 7-نفسه، ص44.

8-الجاحظ ، البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار الجيل، (د.ت)، ج 1، ص 76.

9-يقول الجاحظ بعد أن عدد آلات البيان: "ثم قسم الأقسام ورتب المحسوسات، وحصل الموجودات، فجعل اللفظ للسامع، وجعل الإشارة للناظر، وأشرك الناظر واللامس في معرفة العقد، إلا بما فضل الله به نصيب الناظر في ذلك على قدر نصيب اللامس. وجعل الخط دليلا على ما غاب من حوائجه عنه. وسببا موصولا بينه وبين أعوانه؛ وجعله خازنا لما لا يؤمن نسيانه، مما قد أحصاه وحفظه، وأتقنه وجمعه، وتكلف الإحاطة به؛ ولم يجعل للشام والذائق نصيبا" (الحيوان، ج1ص46).

10-الجاحظ، البيان والتبيين، ج 1، ص 76.

11-المبرد، ، الكامل في اللغة والأدب، عارضه بأصوله وعلق عليه محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، 2002، ج1، ص29. 12-الجاحظ، البيان والتبيين، ج 1، ص 78. 13-نفسه، ج 1، ص 78-79. 14--نفسه، ج 1، ص 79.

15-يقول الجاحظ: "وكلما كانت الدلالة أوضح وأفصح، وكانت الإشارة أبين وأنور، كان أنفع وأنجع". نفسه، ج1ص75.

16-نفسه، ج1، ص91. 17-نفسه، ج1، ص44.

18-الأندلسي ابن حزم، طوق الحمامة في الألفة والألاف،ضبط سعيد محمود عقيل، دار الجيل – بيروت، 2004، ص52.

19-الفارابي، كتاب الحروف، تحقيق محسن مهدي، دار المشرق، الطبعة الثانية، 1990، ص 144.

20-التوحيدي، (أبو حيان)، رسالة في علم الكتابة، طبعة محققة ومنقحة، الطبعة الأولى، 2001، الناشر مكتبة الثقافة الدينية، ص16. وقال الجاحظ في نفس السياق: "اللسان مقصور على القريب الحاضر، والقلم مطلق في الشاهد والغائب، وهو للغابر الحائن، مثله للقائم الراهن. والكتاب يقرأ بكل مكان، ويدرس في كل زمان، واللسان لا يعدو سامعه، ولا يتجاوزه إلى غيره" (البيان والتبيين، ج1ص80).

20-الجاحظ، الحيوان، ج 1، ص 34. 21-الجاحظ، البيان والتبيين، ج 1، ص 81-82. 22 -نفسه، ج1ص80.

صدر للأستاذ محمد أندلسي